المحاضرة 5

الإعجاز التركيبي في القرآن الكريم

المحتويات :

1- الإعجاز التركيبي المتعلق بزمن الفعل:

2- العدول في حروف المعاني:

أ/ العدول في حروف الجر.

ب/ العدول في حروف العطف.

ج/ العدول في حروف النفي.

3- العدول على مستوى التركيب النحوي.

أ/ التقديم والتأخير.

ب/ الحذف.

إن القرآن الكريم أُلّف على طريقة مخالفة لطرق العرب، لم يعرفوها من قبل، فقد عرفوا الشعر والنثر، والرجز والسجع، والكلام الموزون وغير الموزون ...إلخ، ولكن كلام الله قد تفرّد بأسلوبه، وركّبت كلماته بشكل جديد غير معروف من قبل، وقد أطلق الإمام الرماني على هذا الأمر : نقض العادة، أي أن القرآن قد نقض عادة العرب في كلامهم . أي طريقتهم . وجاء بطريقة جديدة. ومنه يصبح ضرورةً الإيمان اليقيني أن كل تركيبة قرآنية، حرفا أو اسما أو فعلا أو جملة « وضعت وضعا فنيا مقصودا في مكانها المناسب... ».[1]

1-الإعجاز التركيبي المتعلق بزمن الفعل:

كنا قد أوردنا في المحاضرة السابقة أشكال العدول الفعلي؛ وهي ذات منحى صرفي بعدّها صيغا صرفية قبل كل شيء، لكن لا يسعنا إلا أن نذكرها هنا لأن هذه التحولات للأفعال في السياق القرآني الواحد لها أبعاد بلاغية، ومقاصد بيانية يعمد إليها النظم القرآني، وتكشف عن وجه من وجوه الإعجاز البياني في القرآن الكريم. من خلال ربط التركيب بالمعنى والوقوف على دلالات أزمنة الأفعال من خلال السياق القرآني، الذي يتجاوز الدلالة الصرفية البحتة للأفعال .

هذه التحولات في السياق القرآني، تفاجئ المتلقي وتثير دهشته؛ لخروجها عن المتوقع لديه من اطراد السياق على نمط واحد من المطابقة و المشاكلة، مما يدعو ذلك المتلقي البحث عن مثيراتها السياقية، وأبعادها الدلالية.

ونلحظ أن مجيء الأفعال في السياق القرآني كثيراً ما يخرج عن النمط المألوف للغة من حيث التصرف في أزمنة الفعل، وذلك كالتعبير عن الحدث الماضي بالمضارع والتعبير عن الحدث المستقبل بالزمن الماضي، وكثيراً ما نجد السياق القرآني لا يجري على نمط واحد في المطابقة الزمنية بين الأفعال، إذ يحصل تصرف في التحول الداخلي للسياق نفسه بالمخالفة في أزمنة الأفعال، كأن يرد في السياق ذكر الفعل المضارع ثم ينكسر النسق السياقي بمجيء الفعل الماضي في السياق نفسه أو العكس، مما يثير التساؤل عن معرفة سبب ذلك التحول ودلالته التعبيرية في السياق القرآني[2].

2- العدول في حروف المعاني:

أ/ العدول في حروف الجر.

يبرز هذا العدول من خلال المغايرة في حروف الجر في السياق القرآني وذلك بمجيء بعض الأفعال متعدياً بحرف ، ثم العدول عنه إلى حرف آخر في السياق نفسه ، وكذلك المغايرة لهذه الحروف

في تعالقها بالأسماء في السياق نفسه. مثال ذلك العدول عن (على) إلى (في) في قوله تعالى﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: 24]، فقد ذكر مع الهدى حرف الجر (على)، فقال :﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ ، ثم عدل عنه إلى (في) مع الضلال .

وقد وقف الزمخشري على سر هذا العدول ، فقال: لأن صاحب الحق كأنه مستعلٍ على فرس جواد يركضه حيث يشاء ، والضال كأنه منغمسٌ في ظلام مرتبكٌ فيه لا يدري أين يتوجه.[3]

بالإضافة إلى ذلك يمكن إيراد الكثير من الأمثلة عن العدول في حروف الجر في القرآن الكريم؛ منها ما كان فيه العدول عن (في) إلى (على)، أو العدول عن (في) إلى (الباء)، أو العدول عن (في) إلى (من)، وكذا العدول عن (من) إلى (في)، إلى غير ذلك .

ب/ العدول في حروف العطف.

لحروف العطف أهمية كبيرة في أداء وظيفة الربط في الجملة العربية ، وتضفي هذه الحروف دلالات خاصة يكشف عنها السياق الواردة فيه ، و نمثل للعدول في هذه الحروف بقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ [المرسلات: 1-5].

إذ جاء العدول عن (الفاء) في قوله تعالى: (فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً) إلى (الواو) في قوله تعالى: (وَالنَّاشِراتِ نَشْراً) ؛ ليفرق بين طائفتين من الملائكة، فما قبل (الواو) يمثل طائفة مستقلة في الملائكة مهمتها الإرسال والعصف ، وطائفة أخرى جاء ذكرها بعد (الواو) مهمتها النشر والفرق وهو ما أوضحه الزمخشري بقوله: « أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره، فعصفن في مضيهن ؛ كما تعصف الرياح تخففاً في امتثال أمره ، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي ، أو نشرن الشرائع في الأرض ، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين ، ففرقن بين الحق والباطل فألقين ذكرًا إلى الأنبياء».[4]

جـ/ العدول في حروف النفي.

إن التعبير القرآني خالف في الاستعمال بين أداتي النفي (ما) ، و(انْ) ، فعدل في الأسلوب عن (ما) إلى (إنْ) كثيرًا. ومن خلال السياقات القرآنية التي وردت فيها (إن) النافية ، نجد أن النفي بها

آكد وأقوى . وهذا يفسر لنا دلالة المخالفة في السياقات القرآنية التي ورد فيها العدول عن (ما) إلى (إن) ؛ نحو قوله تعالى على لسان النسوة: ﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: 31].

فقد جاء النفي ابتداء بـ(ما)، ثم عدل عنه إلى النفي بـ(إن)، ولم يطرد السياق على نمط واحد من النفي فيكون: (ما هذا بشرًا ، ما هذا إلا ملك كريم) ؛ وذلك لأن نفي البشرية عنه أهون من إثبات وصف الملائكية له، فأتى بـ(إنْ) فيما هو آكد؛ إمعانًا في تأكيد صفة الملائكية له في الحسن والهيئة، ونفي ما سواها عنه ؛ إذ القصر بـ(إلا) يفيد دلالتي النفي، والإثبات معًا، فقد أثبت له صفة الملائكية ، ونفى عنه ما دونها. [5]

كانت هذه نماذج عن العدول في حروف المعاني، والتي كان فيها السياق حكما في اختيار "أداة" دون أخرى–و الاختيار أساس العدول ومبرره– ويمكن الحديث هنا كذلك عن أسلوب "التوكيد" الذي –وإن اختُلِف في حاجة القرآن إليه– إلا أنه يقوم على مراعاة مواطن توظيف "المؤكدات" تبعا لسياق الجملة أو الآية، إذ لكل أداة توظيف معين؛ فالقرآن يؤكد هنا بالنون الخفيفة مثلا، وفي موطن آخر بالنون الثقيلة، وهنا بحرف (إنّ) المشددة، وفي موطن آخر بحرف (إنْ) المخففة، وقد يستبدل حرفا بحرف وهنا مكمن العدول.

3– العدول على مستوى التركيب النحوي.

أ/ التقديم والتأخير.

استخدم القرآن الكريم أسلوب التقديم والتأخير على أرفع صورة بيانية، وبدقة عجيبة معجزة، ورصَفَ الألفاظَ في الجملة جنبا إلى جنب، بطريقة متناسقة رائعة.

–أسباب و أقسام التقديم والتأخير في القرآن الكريم:

للتقديم والتأخير **قسمان:**

- الأول: تقديم اللفظ على عامله:

كتقديم المفعول به على الفعل، وتقديم الظرف على الفعل، أو تقديم الجار والمجرور على الفعل، أو تقديم الخبر على المبتدأ.

- الثاني: تقديم الألفاظ بعضُها على بعض في غير العامل:

حيث يُقَدم اللفظ في آية، ويؤخَّر في آية أخرى مشابهة، وإذا قدم القرآن لفظا في موضع قدَمه لحكمة،

وإذا أخر اللفظَ نفسه في موضع آخر أخَره لحكمة أيضا.

ومن **أسباب** التقديم والتأخير في البيان القرآني:

1- التقديم للاختصاص: بأن يقدم القرآن لفظا لاختصاصه بأمر معين.

2- التقديم للتفضيل: بأن يقدم الفاضل على المفضول.

3- التقديم للأهمية: يقدم الأهم على ما دونه.

4- التقديم للأولوية الزمانية: بأن يقدم الأسبق في الوجود والزمان.

5- التقديم للترتيب: يقدم ما يدعو إلى فعله قبلَ غيره.

6- التقديم للكثرة أو القلة: يقدم الأكثر على الأقل أو العكس.[6]

ولنمثل لروائع التقديم والتأخير في الخطاب القرآني؛ فقولُه تعالى: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ** ﴾ [الفاتحة: 5-6] فيه تقديم للمفعول به في الآية الأولى، و عدم تقديمه في الآية الثانية. حيث (إياكَ) ضمير منفصل مبني، في محل نصب مفعول به، مقدم على فعله، وذلك في الفعلين: (نعبُد) و (نستعين)، والأصل: (نعبدك) و (نستعينك). أما الترتيب في قوله: (اهدِنا الصراطَ المستقيَم) فهو وفق الأصل؛ لأن الجملة تتضمن فعل أمر وفاعلا و مفعولين. و الحكمة من تقديم المفعول به في (إياك نعبد وإياكَ نستعين) هو للاختصاص و القصر، و « كأنّ المؤمنين يقولون: يا ربنا إننا لا نعبدُ إلاّ أنت، ولا نستعين إلاّ بك. وبينما كان تقديم المفعول به هو الأنسب في قوله: (إياك نعبد وإياكَ نستعين) ، فإن تقديمه ليس مناسبا في الآية اللاحقة، ولذلك كان المفعول به في مكانه الطبيعي بعد الفعل والفاعل: (اهدنِا الصراطَ المستقيَم). و السبب في ذلك أن طلب الاختصاص في الهداية لا يصح، فلا يهدي الله شخصا واحدا فقط...لا يجوز أن تقول: اللهم اهدني وحدي وارزقني وحدي، أو تقول: إيايَ اهدِ، وإيايَ ارزق».[7]

ب/ الحذف.

وهو من الظواهر الأسلوبية اللغوية التي توسع الدلالة، يكون على مستوى الصيغ (الحروف والحركات وهذا ما تطرقنا إليه سلفا في المحاضرة 3) أو على مستوى التراكيب (حذف الكلمة-حذف الجملة) . يقول عبد القاهر الجرجاني في هذا الباب إن الحذف « باب دقيق المسلك لطيف المأخذ،

عجيب الأمر شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيدُ للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتّم ما يكون بيانا إذا لم تبن».[8]

ويكون الحذف لعلل كثيرة منها وضوح الدلالة، الحث على أمر مطلوب، فمن أسباب الحذف في السورة الحديد مثلا الحث على الإنفاق في قوله تعالى : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد :7] ، حذف مفعول أنفقوا للمبالغة في الحثّ على الإنفاق وعدم البخل بالمال .

كما حذف مفعولا في الآية 10 من السورة نفسها يقول:﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ إذ حذف مفعول (تنفقوا في سبيل الله) لما تقدم والاستفهام فيها للإنكار التوبيخي لتشديد التوبيخ أي : ماذا حدث لكم لا تنفقوا زلفى إلى الله تعالى.[9]

ومن ناحية ثانية: التعبير القرآني المعجز قد يذكر كلمة أو جملة في آية، ويحذف هذه الكلمة أو الجملة في آية أخرى مشابهة تتحدث عن الموضوع نفسه...فيكون الذكر والحذف في الموضعين مقصودا، متفقا مع السياق. مثال ذلك ذكر (والمؤمنون) وحذفها، في آيتين تتحدثان عن الموضوع نفسه؛ ففي الآية الأولى يخبر الله سبحانه وتعالى أنه سيرى العمل هو ورسوله في قوله تعالى: ﴿ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: 94]، و أخبر في آية تالية من السورة نفسها بأنه سيرى هو ورسوله والمؤمنون العمل وذلك في قوله: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105]. «. ..وحكمة حذف (المؤمنون) من الآية الأولى أن الكلام فيها عن المنافقين، والمنافقون هم الذين يظهرون الإسلام على ألسنتهم، ويخفون الكفر في قلوبهم، ولا يعلم المؤمنون ما يخفونه، لأنهم لا يعلمون الغيب، إلا إذا أعلمهم الله عن أولئك المنافقين. .. وحكمة ذِكر (المؤمنون) في الآية الثانية أن الكلام فيها عن أعمال المؤمنين الصالحة من صلاة وذكر وزكاة وصدقة، وهذه الأعمال ظاهرة علنية مكشوفة، يراها المؤمنون ويشاهدونها ويطلعون عليها».[10]

[1] فضل صالح السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، شركة العاتك لصناعة الكتب، مصر، ط2، 2006، ص4.

[2] ينظر: عبد الله علي الهتاري، تحولات الأفعال في السياق القرآني وأثرها البلاغي، مجلة الدراسات الاجتماعية، جامعة العلوم والتكنولوجيا ، اليمن، العدد22، جويلية–ديسمبر، 2006، ص 153–206.

[3] عبد الله الهتاري، العدول في حروف المعاني مظهر من مظاهر الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، الشبكة العالمية للمعلومات، موقع ملتقى أهل التفسير، الصفحة: https://vb.tafsir.net/tafsir7922/#.WsOiJW9KHqA

[4] ينظر: المرجع نفسه، ص نفسها.

[5] نفسه، ص نفسها.

[6] صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني و دلائل مصدره الرباني، ص 262.

[7] المرجع نفسه، ص 264.

[8] الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، صححه وضبطه وعلق عليه: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1978، ص 170.

[9] مرتضى قائمي وآخران، أسلوبية الانزياح في سورة الحديد المباركة، مجلة إضاءات نقدية، فصلية محكمة، السنة السادسة، العدد24، 2016، ص 64.

[10] صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، ص 259.